تأمّلات في آيات الحجّ

عبدالرحمن شرفي
قاضي المحكمة العليا ـ السودان

هذه رؤىٰ لهموم ووحدة المسلمين وإسلامهم من خلال مناسك الحجّ وآياته... والفارق يبدو جلياً بين الواقع والواجب ـ من هذه الرؤىٰ.

مقدّمة

قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِيِّ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ *﴾[1].

هذه الآيات الكريمة، وما تضمّنتها من حرمات الله وشعائره، ومناهج ابتغاء الغايات... نتلمّس فيها بعض معاني الوحدة الإسلامية والتسليم للخالق.... وما يقتضيه هذا التسليم ـ والايمان ـ من مدافعة ومناصرة... ونهدي هذه المعاني إلى كلّ من لبّى النداء الإبراهيمي من لدن أبي الأنبياء، إلى أن يورث الله أرضه لعباده الصالحين ويرثها ومن عليها...

هذه المعاني إلى كل من أجاب النداء وأقبل إلى الله وهو يردِّد: (لبّيك اللهمّ لبّيك)... أُقدّم هذه المعاني ذكرى.. فالغفلة قد استطالت واستطارت... أُمّة الإسلام غافلة ـ غافلة، مغيّبة، ممزّقة، مذبوحة، مغتصبة. ... إنّها مؤامرة مدبَّرة من قبل النظام العالمي الجديد، شعارها: (إبادة المسلمين واستخراب ديارهم)... إنّها بعض الحقيقة ونحن في غناء عن مزيد بيان، غير أنه ما زال هنالك رجاء.. الرجاء كائن، ما ظلّ الناس يهرعون رجالاً، وعلى كلّ ضامر، من كلّ فجٍّ عميق، ليذكروا اسم الله

في أيّام معلومات... يؤدّون فيها شعائر الله، وليطّوّفوا بالبيت العتيق... الأمل كائن رغم الغفلة...

﴿إنّ الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾(٢).

... الغفلة ليست أبدية... إنّها طائف تبدّدها التذكرة... (المسلمون قادمون)... هتاف بدأ ينبعث من حناجر شبابنا المسلم... شعاع الفجر الصادق بدأ يشقّ ثنايا ظلمات أُفق الجاهلية المعاصرة... جاهلية النظام العالمي الجديد... إنّها بدايات التذكرة... الذين كانت أعينهم في غطاء عن منهج الله ... سيتّخذون إلى ربّهم سبيلاً وتولد أُمّتنا من جديد، من بين أرحام ظلمات الجاهلية، ويصدق وعد الله القائل: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**(٣).

... الأرض التي عاث فيها الكافرون فساداً، يرثها الصالحون من عباد الله... **﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور﴾**... ومبدأ المنطلق من هنا... من هذه الشعائر... نستشعر ذلك من تسلسل هذه الآيات المبدوءة بالآذان الإبراهيمي... مروراً بصياغة الإنسان الرسالي ـ والأُمّة الرسالية ـ، وبيان الغايات ومناهج بلوغها... بلوغ غاية الغايات **﴿ولله عاقبة الأُمور﴾**.

ينخرط الإنسان المسلم في الطريق... بعد التمكين الرباني... تسعد الإنسانية بمنهج الأُمّة الرسالية... هذه معاني بعض أهداف الآيات القرآنية العظيمة حول شعائر الله... حجّ بيت الله... فإن أصابت الرؤية ـ والقراءة ـ فالحمد لله على نعمة الضياء ونعمة البصر ونعمة العلم الذي لم نؤت منه إلّا قليلاً... **﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾**... وإن كانت الأُخرى فنسأل الله المغفرة وإقالة العثرات.

الحجّ رمز وحدة المسلمين

جاءت آية فرضية الحجّ من سورة آل عمران مقرونة مع وحدة

المسلمين ـ مع بيان منهج الوحدة ودستورها ـ قال تعالى: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً...﴾ ولمّا كان الحج يمثّل مؤتمراً إسلامياً جامعاً سنوياً، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيِّن منهج الجماعة وهديها... إنّه الاعتصام بالله، والإيمان الصادق به وتسليم الأمر والاستسلام للخالق وحده، ووصلاً لآيات فرضية الحج قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *﴾[٤].

أُنظروا يا أهل التلبية أنّ هذه الشعيرة التي تدافعتم إلى أدائها رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ من كلّ فجٍّ عميق، في وحدة ناطقة، لها منهج... صحيح أنكم أحرمتم في الميقات... استوى الأثرياء والفقراء، حين تجرّد الجميع من الثياب والرياش... وحين ارتدى الجميع هذا الزيّ الموحَّد... المتواضع... زالت كلّ الفوارق... إنّها وحدة نادرة ناطقة بأروع بيان... ولكن الأمر أعمق من وحدة شكلية... الوحدة الشكلية الخالية من المنهج هي التي تجمعنا الآن... هذا هو الواقع... إنّها الحقيقة الأليمة... كيف لا نتألّم... كيف لا نستشعر التكليف الحقيقي من وراء هذه الوحدة... الوحدة أصبحت استراتيجية العالم المعاصر... عند تحقّق وحدتنا بالمنهج الإسلامي، نكون أقوى وأوثق، وتكون الجماعة الإسلامية صاحبة القيادة والريادة للبشرية... منهج وحدة الجماعة الإسلامية، أن تعتصم الجماعة الإسلامية أن تلتزم وجوباً بالايمان والتقوى ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته...﴾...

منهج وحدة الجماعة الإسلامية أن تستسلم وجوباً إلى الله وحده فلا تخضع ولا تركع إلّا لله... ولا تستذل ولا تستعبد لمخلوق... ﴿**ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون**﴾... أليست هذه الآيات الكريمة هي ذات آيات فريضة الحجّ...؟ إننا فقط نعيد قراءتها بتأمّل... ونضيف في معرض التأمّل في ذات الآيات... إن منهج وحدة الجماعة الإسلامية أن تتحرّر وجوباً... تحرّر قرارها... لا ترهن مصيرها وقرارها لأهل الشرّ وأهل الشرك ـ ولو كانوا من أهل الكتاب ـ أو كانوا من دونهم، ... أُولئك لا يعرفون القسط والعدل في حقّ أُمّتنا... ولا يريدون لها أن تبلغ حقّها وغاياتها...

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *﴾**(٥)**.

... يا ترى كم من قلوب أُمّة الإسلام اتّخذت اليوم بطانة من دون المؤمنين؟ ... رغم البغضاء التي تبدو من أفواههم... ﴿**وما تخفي صدورهم أكبر**﴾... ﴿**ها أنتم تحبّونهم ولا يحبّونكم**﴾... ما أروع بيان القرآن وهدايته... ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤوهم**﴾...!

تلك بعض تأمّلاتي في آيات فرضية الحجّ من سورة (آل عمران)... فالحجّ رمز وحدة المسلمين.. وفي الإحرام تتجسّد الوحدة... الكلّ يرتدي لوناً واحداً.. غطاءً واحداً، وبنمط واحد... الكلّ يردّد ذات الكلمات... والكلّ في موقف واحد في عرفات... الكلّ يفيض... الكلّ يطوف حول البيت العتيق... الكلّ يسعى... وحدة في المبتدإ ووحدة في المنتهى... وحدة في التوجّه... الإله واحد... الدين واحد...

القبلة واحدة... البيت واحد... الجماعة واحدة، والفرد عضو في جسد جماعة موحّدة... الوحدة رمزنا، والحجّ رمز وحدتنا... غير أننا قد أضعنا المنهج.. ضللنا.. لم يعد الحجّ سوى مكان إجتماع... مؤتمر عام يجمع ذوي مشارب شتّى... يجتمع المؤتمرون وقلوبهم شتّى، ويفترقون وقلوبهم شتّى... يجتمعون في ذات الميقات والمكان، وبين قلوبهم بعد المشرقين... ويتفرّقون بذات ما حملتها الصدور من إحن.. بذات روح العداء.. مفرّقون ممزّقون.. إنّها الفريضة الحاضرة الغائبة.. أُمّتنا واجهها التأمّل والعمل الفوري بكلّ أمر وجوبي ذكرناه آنفاً بعبارات ـ وجوباً.. وجوباً .. وجوباً.. والأمل في إنقاذ الواجبات قريب بإذن الله.. على الأُفق تلوح تباشير الإنقاذ بعد أن كنّا على شفا حفرة من النار.. ﴿**وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾.. تتنزّل رحمة الإنقاذ بالتوجّه والعمل الخالصين.. وكما تنزلت قبل، تكون أُخرى ـ بإذن الله ـ فإنّ مع العسر يسراً... إنّ مع العسر يسراً... وتعود أُمّتنا إلى الوحدة على منهج القرآن.. وتتآلف قلوبنا بعد طول البغضاء والشحناء.. وتعتصم أُمّتنا بحبل الله جميعاً من جديد، ولا نعود بعدها إلى التفرّق والتمزّق أبداً بإذن الله، فقد رأينا بأعيننا مدى بغض أعدائنا لنا.. في الأندلس.. في البلقان .. في الهند.. في روسيا.. في الغرب كلّه.. في الشرق.. في فلسطين وفي البوسنة والهرسك ﴿**وما تخفي صدورهم أكبر**﴾...

الحجّ إسلام وتسليم

قلنا قبل: إنّ من آيات فريضة الحجّ قوله تعالى: ﴿**ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون**﴾.. إنّها دعوة إلى الإسلام المقرون بالتقوى..

أيّها الحجّاج:

الآن .. فوراً.. يجب أن نرقى إلى درجة الإسلام، فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون.. فقد تموت اللحظة.. الموت غيب ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾... ولا تدري نفس في أي وقت تموت... ويجب أن يكون إسلامنا شاملاً.. استسلامنا لله

الخالق وحده.. بالطاعة الكاملة واتباع المنهج.. والاحتكام إلى الله ﴿**فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً**﴾(٦).

... ولنطمئن أننا قد عرجنا في مدارج الاستسلام لله، نراجع ذواتنا ونحن في الطواف حول البيت العتيق .. وفي السعي بين الصفا والمروة.. وفي رمي الجمرات.. وقبل ذلك كلّه في الوقوف بعرفة.. كلّها ترمز إلى الاستسلام والتسليم.. الطاعة لله والخضوع له.. هذه الشعائر من ذا الذي يحيط بشيء من حكمتها.. سوى الله الخالق.. العليم الخبير.. ما علينا إلّا الترديد بإخلاص وصدق (لبّيك اللهمّ لبّيك).. وهذا هو التسليم الخالص لله سبحانه وتعالىٰ.

ولقد وهنت عرى التسليم الواعي في الأنفس.. كثيرون لا خلوص لهم في التسليم والاستسلام لله. ينادون (لبّيك اللهم لبّيك) ولا تكاد الكلمات تنفذ إلى دواخلهم ، لتزلزل كلّ علائق الشرك أو الهوى. المطلوب هو التوجّه الخالص إلى ربّ الخلائق.. إنّه وحده المعبود المحبوب المطاع.. بعض الملبّين يشركون المال أو السلطان.. بعضهم يشركون في الحبّ.. حبّ الذات أو المال أو الولد.. أو خلاف ذلك.. لا تسليم ولا إسلام لأُولئك الذين يشركون.. إفراد الخضوع لله والخلوص في التوجّه إلى الخالق المعبود هو ما يجب استحضاره مع كلّ تلبية.. وفي كلّ حين.. فلا خضوع لغير الخالق المعبود.. ذلك هو المقام الذي يجعل من الإنسان مخلوقاً ربّانياً.. يدعو فيستجاب له.. يجاهد في سبيل الله فيهديه الله إلى سبيله.. سبل النصر والعزّة والتوكّل والرقي في مدارج الكمال.. ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا**﴾(٧)... إنه الإنسان المستسلم إلى الله ـ المتوكّل عليه ـ توكلاً إبراهيمياً.. أبو الأنبياء سلَّم أمره لله وهو يُلقى في النار.. ﴿**فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين**﴾(٨).. وبعد طول سؤال ودعاء رزقه الله سيّدنا إسماعيل.. ﴿**ربِّ هب لي من الصالحين* فبشّرناه بغلامٍ حليم**﴾(٩).

... وجاء الاختبار الثاني: ﴿**فلمّا بلغ معه السعي قال يا بني إنّي أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾[١٠]... وضرب سيّدنا إبراهيم المثل في غاية الخضوع لله والاستسلام له.. ذهب ليذبح ابنه... وتأهب ثم بدأ يشرع، خاضعاً لله ﴿**فلمّا أسلما وتلّه للجبين* وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾[١١]... ومن قبل تمثّل التوكّل الإبراهيمي في الاستسلام لله بترك هاجر وطفلها إسماعيل عليه السلام عند مقام البيت الحرام، حيث كان المكان صحراء جدباء، وقفل راجعاً وهو يستهل لربّه قائلاً ـ كما في سورة إبراهيم ـ ﴿**ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون**﴾[١٢]... تلك بعض صور الخضوع الخالدة.. يرمز إليها الحج، في التلبية وفي كلّ الشعائر.. وبإخلاص التوجّه لله والاستسلام له يرقى المسلم في مدارج الإسلام والإيمان.. وحين تبلغ الجماعة المسلمة وأفرادها، هذه المقامات، تسعد البشرية جمعاء.. هذه البشرية التي جمعت من النعم المادية، وحقّقت في عالم المادة ما لم يتحقّق من قبل، تعاني من فشل ذريع في جبهه السلام والأمن والطمأنينة والوشائج الإنسانية.. فأصبحت على شفا جرف هار تنهار بها في نار جهنّم.. غير أن الله لطيف بعباده رحيم.. أرحم من أن يدع البشرية تعاني ويلات طغيان المادية.. وغداً بإذن الله يجيء الإنقاذ، فيشرق فجر الإسلام من جديد، ويملأ الكون نوراً.. ويسود السلام وتعمّ المحبّة.. ويأتي نظام عالمي جديد، قوامه العدل والحرية والمساواة بين كلّ بني آدم.

الإنقاذ وشرطه

نعم غداً بإذن الله يجيء الإنقاذ.. هذه الأُمّة الموحّدة شكلاً.. باجتماعها خلال هذه المناسك، تعود إليها وحدتها الفعلية ـ الإسلامية ـ فتصبح جماعة واحدة، معتصمة بحبل الله، قائمة بدورها الرسالي، عند تحقيق ركيزتين.. على نحو ما (في

ظلال القرآن) في بيان آيات فرضية الحج.. أولى هاتين الركيزتين هي ركيزة الإيمان والتقوى. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل.. التقوى الدائمة اليقظة، التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر، حتى يبلغ الكتاب أجله.. ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته...**﴾ اتقوا الله كما يحقّ له أن يُتّقى ﴿**ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون**﴾. أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأُخوّة في الله.. على منهج الله.. لتحقيق منهج الله.. ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا * واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً...**﴾.. إنّها الإخوّة النابعة من التقوى والإسلام.. من بين ثنايا الركيزة الأُولى.. إنّه تجمّع المؤمنين الذين تخفق قلوبهم بالتقوى.. وتتوثّق الأواصر بينهم بالأُخوّة في الله.. لا يكونون محض جماعة متآلفة في الظاهر، وإنّما جماعة متآلفة القلوب.. ﴿**فألّف بين قلوبكم**﴾. إنّه التآلف المفقود في تجمّعات عالم اليوم.. إنّه السبيل الأوحد لتوثيق الوشائج الإنسانية بين بني البشر أجمعين. والأُمّة الوحيدة المرشّحة لأداء هذه الرسالة، هي الأُمّة الإسلامية.. ﴿**كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس**﴾.

يقول الشهيد سيّد قطب في معرض بيان معاني هذه الآية (في ظلال القرآن): «هذا ما ينبغي أن تدركه الأُمّة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أُخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة.. بما أنها هي خير أُمّة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشرّ في هذه الأرض، ومن ثمَّ لا ينبغي لها أن تتلقّى من غيرها من أُمم الجاهلية، إنّما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأُمم ممّا لديها، وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه .. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصوّر الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتّمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً.. في مركز القيادة دائماً.. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاءً، ولا يسلم لها به إلّا أن تكون هي أهلاً له.. وفي أوّل مقتضيات هذا المكان، أن تقوم

(الأُمّة) على صيانة الحياة من الشرّ والفساد، وأن تكون لها القوّة التي تمكّنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فهي خير أُمة أُخرجت للناس، لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك كلّه علوّاً كبيراً ـ... إنّما تبوّأت أُمّة الإسلام هذا المقام بالعمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها المعروف، مع الايمان الذي يحدِّد المعروف والمنكر.. في هذه الآية وصف الله سبحانه وتعالى أُمّة الإسلام بأن صفتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. إنّ الأُمة الإسلامية لا توجد وجوداً حقيقياً إلّا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني.. فإمّا أن تقوم بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ مع الايمان بالله ـ فهي موجودة وهي مسلمة. وإمّا أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة، وغير متحقّقة فيها صفة الإسلام»... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

تلك بعض الرؤى.. في مناسك الحج وآيات فريضتها.. بعض واقع المسلمين، وما يجب أن يكون حالهم عليه.. فلنبدأ العمل الإيجابي بإنفاذ الواجب الذي يكون به الإنقاذ والفجر الجديد.. ونردّد بصدق النيّة ونقاء الطوية: «لبيك اللهمّ لبيك» «لبيك لا شريك لك لبيك» «إنّ الحمد والنعمة لك والملك» «لا شريك لك».

الهوامش :

(١) الحج: ٢٧ ـ ٤١.
(٢) الأعراف: ٢٠١.
(٣) الأنبياء: ١٠٥.
(٤) آل‌عمران: ١٠١ ـ ١٠٥.

(٥) آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠.
(٦) النساء: ٦٥.
(٧) العنكبوت: ٦٩.
(٨) الصافات: ٩٨.
(٩) الصافات: ١٠٠ ـ ١٠١.
(١٠) الصافات: ١٠٢.
(١١) الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٥.
(١٢) إبراهيم: ٣٧.